على بعض ، ووفقاً لسنة الله فى خلقه ، وانسياقا مع الطبيعة فى عنانها الممدود ونظامها المرسوم ؛ — تنبثق كذلك « الفكرة الجديدة » فى موكب غير منظور من الدواعى والأسباب ، فهى قدر محتوم ، وسنة لا تبديل لها ولا تحويل ، وظاهرة تتخذ لها ما تتخذ الظواهر الطبيعية من المقومات والأسناد ! ...

ما تحسب أول وهلة أنه وقع فجاءة فى وقته ، وأنه عفو الساعة ، ليس فى جلية أمره إلا وليد تدبير خفى ، ربما استبهمت معالمه حتى على الذين خاضوا غمرته ، وزاولوا تجربته ، فإذا هم — وإن كانوا لا يعلمون على وجه التحقيق — دعاة وشيعة وأعوان ... فطالما دبرت الآراء المتلاقحة ، والخواطر المتناجية ، لونا من المؤامرات الفكرية لا ترى ولا تحس ، ولا يؤبه لها بادىء بدء ، ولكن جو البيئة يمدها بأسباب العداء والنماء ، ومر الزمن يسعفها بأطوار الحياة والإيناع ، وما هى إلا أن تستعلن « الفكرة الجديدة » على نمط سَوِىٍّ ، لا شذوذ فيما تقوم عليه من فواتح وخواتيم .

هيهات أن تنبت « الفكرة الجديدة » فى غير إبانها ، وتعوزها عوامل الإنبات . فإن الحياة والحركة فى هذا الكون بحدوهما نظام محكم وتخضعهما قوانين منطقية دقيقة ، وإن للأحداث فى المجتمع الإنسانى من الطبائع والعلل ما للأفلاك السماوية حين تدور بحسبان ! ...